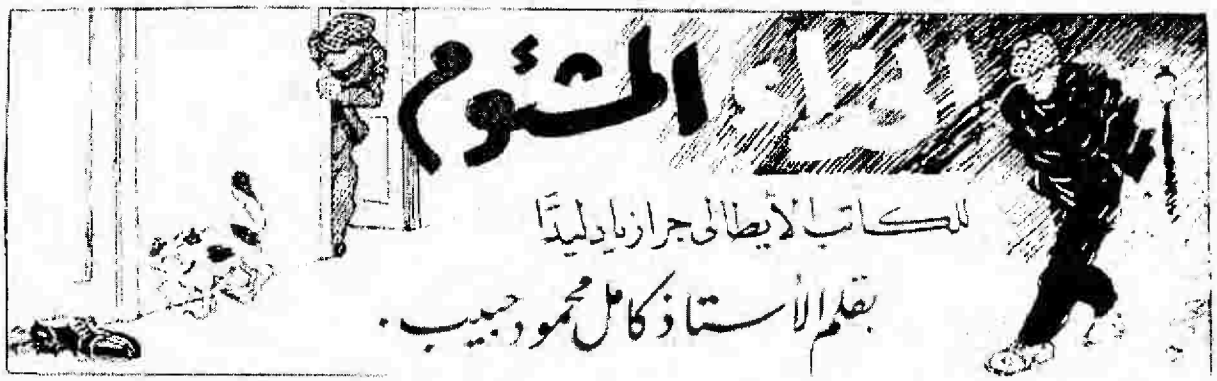

ضاقت سبل الحياة بالفتى إيليا كراى فهو لا يجد عملاً ، وهو لا يدرى كيف يزجى هذا الفراغ المريض الذى وقع فيه على حين فجأة ، إلا أن يقضى شطراً من نهاره فى حجرة الانتظار بالمحكمة ، واضعاً كراسة على ركبته يثبت فيها ما توافيه به قريحته من أشعار يناجى بها زوجته الحبيبة . لقد كان الضجيج يعلو بازائه والجوع تتقاطر من هنا ومن هناك : فقيرات النساء يتخاصمن على دريهمات ضئيلة كأنما يتنازعن أقطار الأرض جميعاً ؛ وقائلو الزور يسيرون فى هدوء وأناة يبتغون شيئاً ؛ وصغار المحامين يتدفعون هنا وهنا يفتشون عن صيد جديد ؛ هذا وإيليا جالس فى هدوئه ، فى زاوية الحجرة ، يكتب إلى زوجته بعض الشعر وكأنه لا يحس مما حوله شيئاً :

« أنا أستطيع أن أرى الحياة بعينى عقلى ، فكل ما يدور فى العالم مقدر قبل أن يكون . أنا شاعر وفيلسوف ، فليس شىء فى الحياة يثير فىّ الدهشة لأننى أعلم أن الأيام تعلو بالمرء مرة وتسفل به أخرى . لا تقنطى — يا عزيزتى — فلربما تذكرنا عمى أغسطينو ... أغسطينو الذى طرد زوجته وحرمها ماله ؛ لعله يذكرنا يوماً فنذهب إلى شاطئ البحر معاً ، نشهد القوارب تضطرب بين الأمواج الهائجة ، ونحن نسير ذراعاً فى ذراع كأننا عروسان فى شهر العسل . على أننا — الآن — سعيدان ، فالحب والاطمئنان يغمران قلبينا وحياتنا . وأنتِ يا سيدار ؛ أنتِ فينوس هرموزا ؛ أنتِ ثرائى وأنتِ ملكتى ... »

* * *

وفى صباح يوم من أيام الشتاء ، أحس إيليا وهو فى مكانه من حجرة الانتظار ، حيث يجلس دائماً ؛ أحس أن يداً قوية تجذبه فى عنف ، وسمع صوتاً خشناً ينادبه : « أسرع : لقد كنت فى (نيرانوفا) وعمك هناك يعالج مرضاً مخطراً ... » هذا صوت سائق يتهيه إلى أمر ، ولكنه ما كان ليسلبه بعض هدوئه . لقد أرسل أنة خفيفة خافتة ، ثم قال يحدث نفسه : « سأنشر هذا الخبر المحزن على عينى زوجتى »

لم تضطرب الزوجة لما سمعت ، ولم تحزن ، ولم تفزع من مكانها وهى جالسة أمام باب الدار تلتمس الدفء من أشعة الشمس ، وقد ارتدت خير ملابسها ، وانتعلت ، ورتبت شعرها فى دقة وأناقة ؛ غير أن ملابسها وحذاءها وقد عبثت بها يد البلى ، ووجهها وقد شحب وتغضن وذوى جماله ، وعينيها وهما تضطربان وقد خبا ضوءهما وانطفأ بريقهما ؛ كانت كلها ترسم سطوراً واضحة فى تاريخ فاقتهما وعوزها

ومن أقصى المكان ارتفعت ضجة تشبه ما يسمعه إيليا دائماً فى المحكمة : فهؤلاء أصحاب الدار يتنازعون فيما بينهم أمراً ؛ وهذا الندىّ — وهو جزء من الدار — قد ضم جماعة يلعبون الورق ويمزحون فى ضجة وصخب ؛ والزوجة لا يعنيها

ملحوظة : كتبت هذه القصة بقلم الكاتبة الايطالية جرازيا دليدا ، وقد أخطأ الخطاط فجعلها الكاتب

ما يدور حولها . أما هو — هو إيليا — الزوج العاشق فقد وقف بإزاء زوجته يداعب شعرها فى رفق وتحبب ويقول : « أتعلمين ما أنا صانع ؟ سأذهب ...! » قالت الزوجة : « إلى أين ...؟ » قال : « إلى أين ؟ لعلك لم تعى شيئاً مما قلتُ : إلى عمى أغسطينو طبعاً : ما أجمل ما أرى فى هذا اليوم ... ! » قالها وقد كتم فى نفسه أموراً استشعرتها الزوجة المسكينة فراحت تحدق فى حذائه الممزق ممزقاً أعيت على الاسكاف ، ثم قالت : « وأين لك بالمال تستعين به على السفر ؟ » قال الزوج فى ثبات : « إن معى ما يكفينى ، لا يشغلك هذا . إن كل ما فى الكون يلد الحياة والجمال لو أن فى النفس الهدوء والدعة . إن ما يهم المرء حقاً هو أن يحب الناس ويحسن معاملتهم . لقد شغلنى هذا كل ساعات الصباح .... أفتريدين أن تقرأى ؟ » ثم قطع قصاصة من دفتره وألقى بها فى حجرها وهو يبسم ... ثم انطلق وما خلّف من شىء سوى هذه القصاصة ...

انطلق ماشياً لأنه لا يملك سوى ثلاث ليرات ؛ وكانت فلسفته قد أوحت إليه ألا يتخبط بين هذا وهذا ، يقترض ، فيضيع وقته فيما لا غناء فيه ... هذا نوع من الرياضة تعوده منذ زمان ؛ وما كان لشىء ما أن ينزع عنه رزانته أو يحول بينه وبين أن يصل إلى عمه أغسطينو ، وهو رجل سيار . لقد سار فى نشاط وخواطره معلقة بحذائه دون قدميه ، فهو يشفق عليه ويشفق ..

* * *

بلغ إيليا (أوروسى) — وهى قرية فى طريقه — ولم يحدث ما يعكر صفوه ؛ فالطريق ممهد لاحب ، والطبيعة جميلة تحنو عليه لتنسيه بعض متاعبه . لقد كانت رحلة ممتعة ، فى ناحية من الأرض سحرية ، فالشمس تتألق كأنها ماسة كبيرة ، وترسل أشعتها الذهبية فى رفق على صخور الجبل ، والحشائش تضطرب تحت نسمات البحر الرقيقة . وحين اندفع هو فى طريقه تراءت له الزهور الرقاقة — زهور الربيع الجميلة — تنفث من عطرها الشذى فى روحه النشاط ، وتذكى فى أعصابه القوة ؛ ثم ... ثم انحدرت الشمس الى مغربها ، فاستحالت حرارتها المنعشة الى برد قارس تحمله نسمات الليل ؛ وأحس الرجل أن قدميه تتندیان ، وأن حذاءه قد انفرج عنهما من هنا ومن هنا ؛ فاضطرب وخانته رزانته الفلسفية حين بدا لعينيه أنه لا يستطيع أن يصلح حذاءه أو أن يجد غيره ؛ وأنه لا يقوى على أن يحمل همّ الطريق وهمّ الحذاء الممزق معاً . وتمثل له ما يلاقيه من مهانة واحتقار حين يبدو فى دار عمه رثّ الملابس ، زرىّ الهيئة ، ممزق الحذاء ، وهو لا يريد أن يكون هو ألم نفسه وعار زوجته حين يلج دار عمه فى مثل حذائه . لا بد أن يجد حذاء ؛ ولكن كيف ؟ إنه هو لا يدرى ... وبعد فترة كان يسير فى شوارع القرية المهجورة المظلمة المنذرة وقد سيطرت عليه فكرة الحذاء الآخر . وفى ناحية من ساحة فندق هناك صغير يشع نوراً ذهبياً قوياً جذب إيليا اليه ... جذبه لينام ليلته فى حجرة قذرة ، حيث ينام عاملان فقيران ؛ وقد كان غطيط أحدهما يستلب إيليا من أفكاره ومن نومه معاً . استلقى الرجل على فراشه وما فى رأسه غير صورة نعل جديد تتراءى له أينما هفا خياله : فى الشارع ، فى الحقل ، فى زاوية الحجرة ، فى صندوق فى الزاوية الأخرى ، ثم هناك عند الباب وكانت تحور أحياناً الى أخرى بالية تنم عن الفقر والفاقة ...

وظلّ إيليا تفزعه الريح العاصفة ، والغطيط المدوّى فى أرجاء الحجرة ؛ والساعات تمر . وتعلق

بصره بنجم يتألق فى السماء كأنه يسبح بين أمواج البحر المضطربة ؛ وخياله عند زوجته وهو جالس اليها ينشر على عينيها بعض أشعاره الرقيقة الطالية ، وعند الحياة الناعمة التى يحياها الى جانبها لو ظفر بما يملك عمه ...

وانتفض الرجل من فراشه بعد لأى وهو يضطرب ، وانحنى على حذاء العامل يريد أن يسلبه فوجده ثقيلا واسما فتركه الى حذاء الرجل الآخر ؛ غير أنه لم يجد شيئا ، وطن فى مسمعيه صوت أقدام تدب خارج الحجرة فاضطرب ووقف فى مكانه وقد سيطر عليه الحزن والفزع ؛ وبدت له خسته فحزن ... حزن حزن القلب يستشعر الخطر المحدق ؛ وحين انحنى الصوت دانف هو إلى الخارج ليرى ... ليرى الردهة خالية الا من بصيص من نور ، وإلا من قطة تحك جسمها فى الجدار ، والا من حذاء بازاء القطة ، بدا فى عينى الرجل جميلاً ... فانطلق إليه يخبئه فى ثنايا معطفه ، ثم اندفع الى الشارع فى هدأة الليل وسكونه . لقد غادر الفندق لم يشعر به أحد ، ثم أسرع ... وتراءى له وهو يسير على شاطىء البحر كأن كواكب السماء تتساقط رويداً رويداً لتغتمر فى هذه اللجة ، فقال : « ياعجبا ! أكل شىء فى الطبيعة والانسان يريد أن يهد ... ؟ » وظل يحدث نفسه هذا الحديث وهو يخب فى الظلام بين الصخور المظلمة والبحر الداكن

ومضت نصف ساعة جلس بعدها ليلبس الحذاء المسروق . لقد بدا عليه السرور والفرح — بادىء الأمر — غير أنه مالبث أن استشعر الحسرة تفجؤه وتكاد تعصف به ، فراح يحدث نفسه : « ماذا يكون لو أنهم تبعونى ؟ سيقتلوننى لاشك . ماذا تقول زوجتى إذن ؟ ستقول : ماذا صنعت يا إيليا ؟ أفتسرق حذاء ؟ أى فرق بينك وبين من يسرق مليون ليرة ، أيها السارق ؟

واضطربت الفكرة فى رأسه : « مليون ليرة : أين هى ؟ أين أجدها ؟ لو وجدتها لاختطفتها لا أنى ولا أتباطأ ... ! » ثم تمطى وهو يبتسم لهذه الخاطرة ، ومد رجليه وحرك أصابعه فى الحذاء الجديد . ياعجباً ! لقد رانت على نفسه سحابة سوداء من الكآبة مرة أخرى ، وشعر بقدميه تنقدان ، وبأصابعه تختلج كأنها تنفر من هذا الحذاء المسروق : لقد سار فى طريقه متكاسلاً ، ومتأبطاً حذاءه ليستطيع أن يلبسه إذا تبعه أحد ؛ ثم اضطرب وتوزعته الأفكار السود ؛ فهو يلتفت الى وراء بين الفينة والفينة ليرى من عساه يتبعه ...

وانبثق الفجر كأنه شيطان مارد يحدجه بعينين فيهما البغض والازدراء ؛ يطل عليه وقد قنعته سحابة دكناء من الضباب ليبعث فى نفسه الفزع والرعب ، وليندره بالفضيحة والويل ؛ وهؤلاء الناس — عما قريب — ينسلون الى القرية ، مارين به ، وحين يسمعون قصة الحذاء المسروق يقول قائلهم : « نعم ، لقد رأينا رجلا هناك يسير مضطربا ، وقد تأبط حزمة يخبئها تحت معطفه ... » .

ورأى — وهو يسير — فلاحاً يسير الهوينى ، فى طريقه الى القرية ، فخيل اليه أنه يحدق فيه ، ويلتفت اليه بين الحين والحين وعلى شفتيه ابتسامة السخرية والتهكم

ثم ... ثم انحسر الظلام عن نهار حزين كالح ؛ وقد نشرت السحب ذوائب طويلة سوداء تصل بين الجبل الشاهق والبحر المضطرب ؛ والغربان تمر به وهى تنعق نعيقها المشئوم ؛ وقد انطوى الجمال الذى أحسه بالأمس فى هذه الناحية ؛ وبدت له الحياة عابسة تبعث فى النفس الألم والضيق ، ودوت فى أذنيه أصوات تفزعه من مكانه لأنه رأى فيها

أصوات الذين من خلفه يقصون أثره ويسخرون منه ؛ فاستبدل حذاءه القديم الممزق بالحذاء الذي سرقه ، وألقى به فى ناحية ثم انطلق ...

لقد ألقى بعض همه حين ألقى الحذاء المسروق ، ولكنه ما زال فى اضطرابه ، وخياله ما يفتأ يصور له أشياء : فهذان العاملان اللذان قضى معهما ليلته ، على أثره يطلبانه بعد أن وجدا الحذاء اللتى ... سيطلبانه ثم يدفعان به إلى المحكمة ، وهناك ... وهناك ... ؛ وتراءى له جماعة يعذبونه ويعذبونه حتى يعترف ...

ماذا تقول زوجته حين يتراءى إليها الخبر ؟ وتأججت الفكرة رأسه يؤرثها الاجهاد والبرد والجوع ، فانطرح تتنازعه الخواطر القاتلة كما تتناوح الرياح الشديدة العاصفة سحابة فى كبد السماء ؛ ورجع إلى نفسه يلومها على أن طوحت به الأيام فى هذه التاهة ، يضرب فى الأرض ، ويفقد الراحة والطمأنينة فى وقت معاً ؛ ثم هو لا يطلب إلا سراباً أو أملاً كالسراب ، ومن يدرى ؟ لعله لا يستطيع أن يأتى بالحجة القاطعة يثبت بها أن أغسطينو هو عمه ... ورغم هـذا فهو قد ألصق بنفسه عاراً لا يغسل .

* * *

نكص الرجل على عقبيه ممتلخ العقل ، مأخوذ اللب ، يحدق فى الحذاء التى فى ذهول وبلاهة ، أفيواريه التراب ؟ إنه إن فعل فما غيّر من الحقيقة التى فى رأسه : أن هـذا الحذاء مسروق ، وأنه هو السارق ...

وتردد إيليا حيناً ، ثم هوى إلى الحذاء يخفيه تحت طيات معطفه ، وارتد إلى القرية لا يستطيع أن يهبطها إلا أن يسدل الليل أستاره ، لقد غبر يوماً كاملاً لا يطعم شيئاً ، فأحس بأعصابه تتراخى ومشى الهوينى يترنح كأنه عود ذاو تعصف به الرياح الهوج ، وولج الفندق ثانية وكأنه فى حلم ، وعلى شفتيه كلمة الاعتراف ؛ غير أنه وجد المكان هادئاً كأن شيئاً ذا بال لم يكن ، وما تعلق به بصر ، ولم يحم حوله شبهة ؛ فتناول طعامه ، ووضع الحذاء مكانه الأول ، ثم ألقى بنفسه فى لجة من النوم العميق الهادىء ، فما استيقظ إلا عند ظهر اليوم التالى . وحين هم من مرقده اشترى رغيفاً بما بقى معه من مال ثم سار ...

وبدا الجو فى ناظرى إيليا — مرة أخرى — جميلاً ، والوادى كأنه يبسم فى رقة وظرف ، والنبات الأخضر تنبعث منه القوة والنشوة ، وهو يندفع فى سيره بفور نشاط أوحياة على رغم هذا الحذاء الممزق الذى تعوج فيه قدماه ، وهو — هو هذا الحذاء — كان يوقظ الرحمة والشفقة فى قلوب الذين يرونه فيمنحونه بعض الخبز واللبن يتبلغ بهما

وبلغ دار عمه وقد أجهده السير وأضناه التعب ، ولكن الأمل كان يشرق فى عينيه فيدفعه الى الأمام ... لقد مات عمه منذ ساعات قليلة ، وراحت الخادم تنظر اليه فى دهشة وهى تعجب : « أأنت ابن أخيه حقاً ؟ لماذا لم تسرع الى هنا ؟ » ولكنه وقف صامتاً ، فاندفعت هى تقول : « لقد أرسل اليك منذ ثلاثة أيام وأنتظر ... انتظر طويلاً وهو يذكرك ، ثم بدا له أنك نسيته ففقد الأمل . وحين أحس بالموت يكاد يقصم عوده أوصى بكل ما يملك الى اليتامى من أبناء البحارة » ...

فارتد إيليا الى داره يحمل الى زوجته الحبيبة الى نفسه خيبة الرجاء وضيعة الأمل وهو لا يستطيع أن يقول شيئاً ...

كامل محمود حبيب